ARCHAEOLOGICAL DOCUMENTATION OF HISTORICAL EVENTS IN THE HOLY QURAN
- STORIES OF THE PROPHETS AS A MODEL-

Chiheb NEGADI¹

Abstract:

The modern scientific revolution has imposed on the researcher to broaden his view by referring to more than one science in addressing his research issues, and in the light of the contemporary ideological debate that the unspoken and the accepted are recognized to without the slightest prestige, it is necessary to discuss what these debates erupt with objectivity and impartiality. The issue of the historical existence of the Qur'anic events, which was taken - according to Arab modernists - from the school of archaeological criticism of the Bible as an example, and since the prevailing belief among Muslims is the infallibility of the Holy Qur'an from distortion and falsification through recurrent and because it contained - equivalent to a third - on Historical events, including stories, and previous facts, it is not possible "believably" and "realistically" that the divine news contradict the achieved historical reality, and since the main purpose of the Holy Qur'an - including the verses of the stories - is guidance, the Qur'an has transmitted history To achieve this purpose without being a book of history that delves into the details and identifies the dates and respects the chronologies with precision and detail, it is not possible "methodologically" and "realistically" to require the archaeological evidence for each Qur'anic event, especially since the nature of the archaeological research itself He suffers from technical and epistemological gaps that make his discoveries and reading of him between the hypothesis of the results of the auxiliary sciences and the self-interpretation of the archaeologist, and the process of archaeological documentation of historical events in Holy Qur'an remains - if it is achieved - as a matter of concerted evidence - despite its suspicion - that raises the believer's faith - and faith in degrees. - It also obliges the non-believer in the Qur'an as a divine source to conform to the material evidence of the divine revelation or what is termed in Islamic thought with the « scientific miracles of the Holy Qur'an ».

Key words: Quranic Studies, Historical Miracles, Archeology, Documentation, Stories of The Prophets.

Istanbul / Türkiye
p. 1-17

Received: 05/11/2021

Accepted: 05/12/2021

Published: 01/01/2022

This article has been scanned |
iThenticat No plagiarism
detected

<http://dx.doi.org/10.47832/2717-8293.15.1>

¹ Researcher, Ahmed Ben blla university, Oran, Algeria, negadi_chiheb@outlook.fr, <https://orcid.org/0000-0003-3544-3154>

التوثيق الأركيولوجي للأحداث التاريخية في القرآن الكريم قصص الأنبياء نموذجاً -

شهاب نقادي 2

الملخص:

أصبحت الثورة العلمية الحديثة تفرض على الباحث التوسيع من نظره بالرجوع إلى أكثر من فنّ في معالجة القضية العلمية، و في ظل السّجال الأيديولوجي المعاصر الذي يتعرض للمسكوت عنه و المسلّم به دون تخرج أو أدنى هيبة، تعبّين مناقشة ما تُثَوِّره تلك السّجلات بالموضوعية و الحيادية الأزمنة، على غرار مسألة الوجود التاريخي للأحداث القرآنية و التي أخذ حداثيو العرب من مدرسة النقد الأركيولوجي للكتاب المقدس مثلاً يُحتدى به، و بما أن الاعتقاد المجمع عليه عند المسلمين هو عصمة القرآن الكريم من التحريف و التزيف، و لكونه احتوى على أحداث تاريخية من قصص و أخبار بما يوازي الثلث، فلا يمكن "واقعيًا" أن يخالف الخبر الإلهي الواقع التاريخي "المتحقق"، و بما أن المقصد الأساسي من القرآن الكريم -بما فيها من آيات القصص- هو الهداية و الإرشاد فإن القرآن قد نقل لنا تاريخاً دون أن يكون كتاباً للتاريخ، فلا يمكن "منهجياً" أن تتطلب الدليل الأركيولوجي لكل حدث قرآني، خاصة و أنّ الأركيولوجيا نفسها تعاني من ثغرات إبستمولوجية تجعل مكشفتها و قراءتها لها بين ظنية نتائج العلوم المساعدة و ذاتية تأويل عالم الآثار، و تبقى عملية التوثيق الأركيولوجي للأحداث التاريخية -إذا تحققت- من باب تضافر الأدلة -على ظنيتها- التي ترفع من إيمان المؤمن -و الإيمان درجات- كما تلزم غير المؤمن الحجّة الدّينية "بتوافق الدليل المادي للوحي الإلهي"، أو ما اصطلاح عليه في الفكر الإسلامي بـ "الإعجاز العلمي للقرآن الكريم".

الكلمات المفتاحية: دراسات قرآنية، الإعجاز التاريخي، الأركيولوجيا، التوثيق، قصص الأنبياء.

المقدمة:

إنّ تثبيت الحداثيّة دعوى مرهونة بتوثيقه، كذا في البحث التاريخي، و يُعتبر توثيق الوقائع التاريخية بالآثار و المخلفات المادية من المناهج المعتمدة حديثاً موازاةً مع الرواية الشفهية، و لما نعلم أنّ آيات الأخبار و الأحداث قد شغلت ثلث القرآن فإنّ قابلية توثيقها "أركيولوجياً" بات أمرٌ لا مناص منه في ظلّ الدراسات البنيوية الحديثة، لا للتأكد من القرآن الذي قد تجاوز قنطرة اليقين من خلال حيثيات جمعه و طريقة نقله، و لكن كدّة فعل على مفتعلي العداوة و البغضاء بين الأركيولوجيا و القرآن من الحداثيين و بعض المفكرين المستوردين لمنهاج "النقد التاريخي للتوراة" و الذي تبنته -من قبل- الثورة البروتستانتية على التراث الديني في الغرب، فجاء الهدف من هذه الورقة البحثية كـ "المصالحة" لتلك "العداوة المفتعلة" بل و لإظهار "الصداقة" المبطنّة - في حقيقة الأمر - بين الحقلين المعرفيين، مستصحباً هدفاً آخر من نوع روحاني المتمثل في زيادة اليقين -و اليقين درجات- من مصداقية القرآن بتضافر الأدلة و تصديق بعضها البعض.

و عليه فإنّ بلوغ هذه الأهداف يتوقّف أساساً - و بعيداً عن عاطفة الانتماء و الاعتزاز بالدين - على محاولة حلّ إشكاليات مزدوجة -منهجية و تطبيقية- في التعامل مع عملية التوثيق الأركيولوجي للأحداث المتضمنة في القرآن، و لعلّ من أهم تلك الإشكاليات و أولها هو تحرير الموقف المتبادل بين الأركيولوجيا و القرآن، و ما مدى التوافق و التكامل - إن وجد - بينهما،

²الباحث، جامعة أحمد بن بلة، وهران، الجزائر، negadi_chiheb@outlook.fr

مع محاولة نمذجة النتائج المحتملة لتلك الإشكاليات من خلال وقائع تاريخية قرآنية اخترت أن تكون في مجال قصص الأنبياء – بسبب الخلفية الفكرية "الموضوية" التي انتشرت مؤخراً بين الأوساط الفكرية و المتمثلة في الإنكار التاريخي للأنبياء – ليحمل البحث عنوان "التوثيق الأركيولوجي للأحداث التاريخية في القرآن الكريم – قصص الأنبياء نموذجاً".

يمكن معالجة الموضوع و إشكالياته بطرق متعددة، و لكنني قدّرت أن تكون الطريقة المناسبة بعقد "المقابلة" بين طرفي البحث، الأركيولوجيا و القرآن، و ذلك بعد تأطير إبيستيمولوجي لكل طرف، بقصد تحقيق مناسبات التوثيق الممكنة أو المتعدّرة، و لذلك كلّ ارتأيت أن أهيكل البحث في أربعة مباحث، أضبط في الأول منها مفهوم التوثيق الأركيولوجي و درجة مؤثوقية المخلفات الأركيولوجية تقنياً و معرفياً، ثم أتكلم في المبحث الثاني عن الأحداث التاريخية القرآنية تَوْصِيْفًا و تصنيفاً، لأعقد في المبحث الثالث مقابلة بين الأركيولوجيا و القرآن، و بيان موقف كل واحد منهما اتجاه الآخر، ثم أختم بمبحث رابع أحاول تقديم نماذج من التوثيق الأركيولوجي لبعض الوقائع التاريخية في قصص الأنبياء و النظر في مدى نجاعة هذه المقاربة.

المبحث الأول: التوثيق الأركيولوجي:

المطلب الأول: دراسة في المصطلح:

صحح ابن فارس أصل مادة "و ث ق" و أرجعها إلى دلالة العقد و الإحكام، و الميثاق عنده بمعنى العهد المحكم ثم استدل بكلمة مشهورة يستعملها المحدثون في دراسة الأسانيد و الرواة و هي لفظة "ثقة" (ابن فارس، 2001، صفحة 1043) في إشارة منه للاستعمالات الأولى لمادة "و ث ق" في التراث الإسلامي و بالضبط في مجال التَّحْقُّق من صدق المخبر و من ثَمَّ من صدق الخبر، و تُسمَّى هذه العملية بالتَّوْثِيق.

بتطور العلوم و تشعبها أخذت كلمة "التوثيق" تُخصَّص أو تُعمَّم من مدلولها تبعاً لتطور مدلول كلمة "الوثيقة" بما يوافق طبيعة كل علم المستعمل لها، فنجد مثلاً أنَّ العلوم الإدارية قصرت دلالة الوثائق على أنها "أوعية للمعلومات المكتوبة" فقط (قبسي، 1982، صفحة 45) في حين وسَّعت العلوم التاريخية من أوعية تحميل المعلومة (المجوسي و حسب الله، 1998، صفحة 223)، و عليه فإن المعلومة التاريخية قد تُستخرج من طبيعة الحجارة المستعملة في التمثال نفسه أو من فخار الأواني أو النمط المعماري أو حتى من طريقة الكتابة إلى جانب الروايات و السرديات الشفهية، و تأخذ مصطلحات التوثيق / الوثيقة حينئذ معناها الأعم.

أما مصطلح الأركيولوجيا Archeologie، فرغم تركيبه المزجي بين مصطلحين إغريقيين "أركيوس arkhaïos" أي القديم و "الوجوس logos" أي العلم، و الذي يدل على "علم القديم" (larousse، 2000، p. 82) إلا أنَّ استعمالاته "اليونانية" الأولى كان بمعنى التمثيل الدرامي الذي كان يقوم به الرومان في مسارحهم، و قد يرد به مجرد السرد التاريخي كما فعل "دنيس داليكارنس Denys D'haliarnasse" في كتابه "الأركيولوجيا الرومانية" في توثيق أحداث حروب روما مع قرطاجنة في القرن الأول الميلادي، ثم كان من الأوائل الذين استعملوا كلمة أركيولوجيا بمعناها المعهود الفرنسي "جان سبون"، لكنه كان يطلق عليها أحياناً مصطلح "أركيوجرافيا" Archeographie، ثم كُتب البقاء لمصطلح "الأركيولوجيا" بعده، و استقر الأمر عليه إلى العصر الحديث (حسن ع.، 1993، الصفحات 12-13)، و الذي يدل على "علم التحري عن الأصول المادية لحضارة الإنسان" (رزق، 1996، صفحة 12) و يقابل هذه الدلالة الاصطلاحية في الاستعمال العربي "علم الآثار" حيث أنَّ معنى الأثر يدور على ثلاثة أصول متلازمة و هي: تقديم الشيء و ذكر الشيء و رسم الشيء الباقي، و منه الأثارة، أي البقية من الشيء، و الجمع أثارات، و منه قوله تعالى: "أو أثاره من علم" (ابن فارس، 2001، الصفحات 42-43).

يحدد المصطلحان -سواء اللاتيني "archeologie" أو العربي "الآثار"- موضوع الدراسة الذي هو الإنسان بثقافته و فكره و فنّه، كما يحدد موضع الدراسة و هي كل مُخَلَّفٍ أو بقايا تُشكِّل وعاء لموضوع تلك الدراسة.

بعد تأصيل اصطلاحي لـ"التوثيق الأركيولوجي" يمكن اقتراح التعريف التالي و هو "عملية التَّحْقُّق من الخبر التاريخي "الشفهي" من خلال البقايا "المادية" لذلك الخبر" حيث تُصبح الرواية التاريخية موضوع التوثيق، و المخلفات المادية موضع التوثيق، و الأركيولوجيا منهج التوثيق .

المطلب الثاني: موثوقية الأركيولوجيا

في أي عملية توثيقية يُشترط فيها تحديد درجة موثوقية الوعاء المعلوماتي الموثق به، بغض النظر عن مصداقية المحتوى الذي قد يتأثر بملايسات تشكُّله، و نظرة إبستمولوجية لعلم الأركيولوجيا قد يكشف اللثام عن درجة موثوقيته، و قبل الكلام عن إبستمولوجية الأركيولوجيا لا بد من تحديد محاور البحث العلمي داخل الأركيولوجيا من جهة، و إبراز علاقتها البينية مع المعارف المختلفة من جهة أخرى.

أما من جهة محاور البحث الداخلية فإن ثمة مجالين أساسيين يتلخص فيهما البحث الأركيولوجي، الأول المتمثل في عملية التّقيب و التّرميم ثم تحليل موادها الأولية و تأريخها ثم حفظها، بما قد يسمى بالعملية الأرشيفية، و الثاني يتمثل في استنطاق المخلفات الأثرية من خلال المواد المستعملة في صناعتها و نقوشها و رموزها باستحضار السياق الجغرافي و الانثروبولوجي و الكرونولوجي لتلك المخلفات، بما قد يسمى بالعملية التفسيرية (Francfort، 2012).

بناء على تحديد محاور الدراسة الأركيولوجية، فإن علاقتها البينية بالحقول المعرفية الأخرى باتت ظاهرة، حيث أن عملية الأرشفة ستحتاج ضرورة إلى العلوم التجريبية كالفيزياء و الكيمياء و علم الهندسة و الجيولوجيا و غيرها، كما أنّ العملية التفسيرية ستعتمد على العلوم الإنسانية و الاجتماعية و اللسانية ، كالانثروبولوجيا و الإثنولوجيا و تيولوجيا و الفيلولوجيا و الهرمينوطيقا و غيرها.

يظهر أن علم الأركيولوجيا هو أكثر العلوم التي يتقاطع فيه الحقول المعرفية على الإطلاق (yoffee & severin، 2010) و لا يظن أنه خبرٌ إيجابي و مطمئن من جهة موثوقية المخلفات الأركيولوجية، حيث أنه ستتقاطع بذلك أيضا كل مجالات الارتفاع لكل علم و تتراكم في علم واحد، مع ما يصيب العملية التفسيرية للمخلفات المادية من ذاتية الأركيولوجي نفسه و أيديولوجيته و خلفياته الفلسفية، و لا يعنى هذا بحال هدم علم قائم بذاته والذي برهن عمليا على أهميته على مستويات كثيرة، و لكن المقصود بهذا الطّرح وضع الإطار الإبستمولوجي الحقيقي للأركيولوجيا ليكن الأركيولوجي على علم بالمعوقات المعرفية و التقنية و يتعامل معها بأكبر قدر ممكن من الحيادية و الموضوعية مستحضرا أثناء بحثه بأن المعلومة الأركيولوجية تتميز بأنها:

- ظنية الثبوت ظنية الدلالة: و قد تكون في أدنى مستويات الظنية بما يتماس -في الكثير من الحالات- مع الشك و التخمين و التخيل، لأن الخطأ وارد في تأريخها أو قراءتها بلغة معينة أو حتى فهمها كما قد تكون تلك العائدات مزورة لأغراض تجارية و سياحية و حتى إيديولوجية فلا يتعجل في الجزم بالحقائق.
- مؤقتة و نسبية في الزمان و المكان: فقد يتوقف استكمال المعلومات على مخلفات أثرية أخرى فلا يمكن الجزم -على الأقل مؤقتة- بنتيجة نهائية، بل قد يُظن أن المعلومة صحيحة فتظهر بعدها مخلفات تقلب المعلومة رأسا على عقب، كما أن المخلفات الأثرية قد تختلف قراءتها باختلاف مواقعها الجغرافية فلا يتحمس في إصدار الأحكام النهائية حتى تكتمل الصورة أو تقرب من الكمال (رزق، 1996، الصفحات 23-27).
- تحتل الأدلة من مستنطقها: و من ذلك توجيه بعض التفسيرات بما يتوافق و إيديولوجيات معينة كالعلموية الإلحادية المنكرة للأديان و تاريخ الأنبياء، أو بدافع استعماري لتبرير النفوذ و الاستيطان من خلال الأركيولوجيا و غيرها من الإيديولوجيات كما هو الحال بالنسبة للحملات الاستكشافية التي يقوم بها الباحثون الإسرائيليون تحت العناية البريطانية منذ منتصف القرن العشرين في سبيل إثبات وجود اليهودي في الأرضي فلسطينية (الأسعد، 2010، صفحة 7).
- نخلص من هذا المبحث أن الأركيولوجيا علم قائم بذاته مبني على غيره، له أهميته و تطبيقاته على مستويات كثيرة، لكن استنتاجاته قد تتأرجح بين اليقينية إذا حُقت بقرائن أخرى و هذا قليل جدًا، كما قد تكون من قبيل الدعاوى و التخمينات بل و من الخيالات أحيانا كثيرة، فتكون موثوقية الأركيولوجيا في أحسن أحوالها ظنية و هي الأصل الذي يُبحث عنه في العملية التوثيقية (علي، 2019).

المبحث الثاني: التاريخ في القرآن الكريم

المطلب الأول: توصيف و تصنيف

من منطلقٍ إحصائيٍّ احتوى القرآن الكريم على مادةٍ تاريخيةٍ بنسبة الثلث، مما يرشح أنه يكون أحد مصادر الرواية التاريخية -على الأقل- عند المسلمين، من جهةٍ أخرى لم يقتصر القرآن الكريم على سرد عام للحدث التاريخي المتعلق بشخصيةٍ أو بأقوامٍ فحسب، بل جاء ذكرٌ لبعض التفاصيل في خضم ذلك السرد، كـبعض الأحوال السياسية و الاقتصادية في الحكم الفرعوني من خلال قصة موسى. أو تطور الصناعة الحربية أو المدنية أو تلك المتعلقة بوسائل النقل من خلال قصة نوح و داود و سليمان عليهم السلام، أو الإشارة إلى مُلابسات تَكُونُ لغة الأمّ من خلال قصة آدم، و المقصود هو تواجد معلومات في مجالات متنوعة تستصحب القصة القرآنية (مهران، 1988، صفحة 9/1).

و مما يجب التأكيد عليه إبستمولوجيا هو أن القرآن الكريم يعتبر مصدراً تاريخياً من غير أن يكون كتاباً للتاريخ، و هذا تصديقاً لأحد مقاصد القرآن الأساسية -إن لم يكن مقصده الأساسي- و هو "مقصد الهداية" و الذي يبرر جملة من خصوصيات الأسلوب القرآني في سرد الخبر التاريخي و التي كانت محل استشكالات بل نقد عند بعض المستشرقين أو الحديثيين، كأسلوب التكرار للحدث التاريخي تارة بالاختصار أو تارة بالاستطراد، و تارة بالتصريح في بعض التفاصيل و تارة بإيجازٍ قد يصل إلى إيهام الشخصية الأساسية نفسها في القصة أو لأمة بنفسها و لزمانها و مكانها في آن واحد، كقصة أصحاب القرية في سورة يس، كما قد يكون أسلوب سرد القصة دَفْعِي (أي أفراد سورة بكاملها لقصة واحدة) كقصة يوسف، أو سرد قصص مختلفة في السورة الواحدة تارة بترتيبها الكرونولوجي كما في سورة الأعراف و هود و القمر، و تارة بغير ترتيب كما في سورة مريم و الأنبياء و الشعراء و النمل، و تارة قد يُشير القرآن إشارةً واحدةً فقط في القرآن بأكمله كشخصية إدريس في سورة مريم.

كل هذا التنوع في الأسلوب السرد التاريخي في القرآن جاء ليحقق مقصد الإرشاد و الوعظ و تثبيت القلوب فلا يُعامل مع القرآن و الحالة هذه تعامل المؤرخين للرواية التاريخية المنقولة بتطلّب التفاصيل و التواريخ المحددة و الموقع الجغرافي و اشتراط التسلسل الزمني للأحداث فلا وَجّه للنقد المنهجي الموجه للقرآن الكريم في موضوع التاريخ.

و بعقد مقارنة بين المضمون التاريخي في القرآن الكريم و السرديات التاريخية الأخرى، سواء ذات مصدر بشري أو إلهي فإننا نجد:

- 1- توافقاً كبيراً مع بعض الأساطير و الأحداث و الأخبار الشعبية الموروثة، مما يقيم أصلاً للحدث أو ما يسمى بـ"نواة الحدث" التي تجعل من ذلك التوافق تصديقاً "إجمالياً" للقصة القرآنية و ليس تشكيكاً لها.
- 2- في المقابل نجد ابتعاد القرآن الكريم عن المبالغات و المغالات و ما تحيله العقول عند نقله للحدث مما قد نجده في الموروثات السردية التاريخية الأخرى كالتوراة (مهران، 1988، صفحة 45/1).
- 3- انفرادات القرآن بأحداث لم ترد إلا فيه، بل و مخالافات لبعض التفاصيل التاريخية جاء القرآن كالمصحح لها و المعقّب للمعهود التاريخي في زمن التنزل رافعاً تحدّي "الإعجاز التاريخي" للقرآن الكريم (عامري، براهيم النبوة، 2017، صفحة 51).
- 4- هناك مادة تاريخية كبيرة جداً سجلها التاريخ شفهيّاً و مادياً لم نجد لها ذكرٌ أو إشارةً في القرآن الكريم الذي أنزل بالأساس لهداية البشر، ذلك لمراعات مبدأ "الاقتصاد المعرفي" و "الانتقاء التاريخي" بما يتوافق مع تحصيل ذلك المقصد.

المطلب الثاني: موثوقية الأحداث القرآنية

يقابل هذا المطلب المطلب الثاني من المبحث الأول و الذي جاء تحت عنوان "موثوقية الأركيولوجيا"، للوقوف على درجات الموثوقية بين المصدرين ثم يتم بعدها مقابلتها، و تعتبر هذه العملية "منهجيا" أساسية للتوصل إلى نتائج بعيدة عن الذاتية و عاطفة الانتماء الديني، و كذلك لتحقيق الدقة في عملية التوثيق بعد ترتيب درجة الموثوقية لكل مصدر. الكلام على موثوقية الأحداث التاريخية القرآنية تابع لموثوقية القرآن الكريم نفسه بالتضمن، و حقيقة نقل القرآن بالتواتر يختصر لنا طريق تثبيت موثوقيته (و ليس مصداقيته التي يتعلق موضوعها بفلسفة العلوم الدينية و مقارنة الأديان) .

التواتر هو ما رواه جمع عن جمع عن جمع تحيل العادة اتفاقهم على الكذب (عبدالمعظم، 1999، صفحة 212/3) و هو في القرآن متحقق في النقل الشفوي، و هو الأصل في إثبات موثوقيته، إذ أن الوعاء الورقي (الكتابة) تابعة له، و ليس العبرة بعدد الجماعة الناقلة للخبر بقدر ما تكون العبرة بحال الجماعة الناقلة له، حيث أن استحالة الكذب في النقل قد يتحقق بثلاثة أو حتى بالإثنين إذا حَفَّ النَّقْلُ قرائن نصية أو سياقية ترفع من موثوقية النقل من الظنية إلى درجة اليقين (التجار، 2017، صفحة 8). واقعا و إحصائيا، آلاف الحفظة للقرآن سنويا عبر العالم يؤكدون عمليا و ميدانيا نقل القرآن الكريم بالتواتر اللفظي، حتى أصبح حفظ القرآن ظاهرة اجتماعية في العديد من البلدان الإسلامية، هذا في ظل العولمة و المشغلات و الإغراءات المادية و طغيان المدنية الاستهلاكية، مما قد يستنزف الوقت و الجهد للشخص دون تحقيق هدف الحفظ، و لو وازنا هذه الحالة الدينية/الاجتماعية بما كان عليه الأمر في العصور الأولى زمن الصحابة و من جاء بعدهم (و قد كانوا حديثو عهد زمانيا و مكانيا و إيمانيا برأس السند القرآني - و هو النبي صلى الله عليه و سلم- مع تفرغهم و قلة مشاغلهم و بساطة مدنياتهم) فإننا نتصور بسهولة تحقق التواتر في نقل القرآن، مع ما كان يشغله من مركزية و حضور في مجالات مختلفة سواء دينية أو حتى سوسيلوجية، فكما أن الصلاة لا تصح إلا بقراءة قدر من القرآن فقد كان عقد القرآن يثبت بآيات من القرآن كمهر يُصَحَّح العقد.

أما من ناحية الأنثروبولوجية فقد كانت القدرة على الحفظ عالية "كما و كيفا" في الأزمنة القديمة و هي ملكة كاد الإنسان يفقدها في العصر الحديث فقدانا تاما، غير أن هذه الملكة توافرت لبعض الأفراد في العصور القديمة إلى درجة تكاد لا تصدق لو لم تكن لدينا أدلة كثيرة عليها على حد قول المتخصص الأمريكي في تاريخ العلوم جورج سارتون (سارتون، 2010، صفحة 290/1)، و باستحضار عدد كلمات القرآن و التي هي نحو 77400 كلمة فقط، و التي تنزلت على مكث في ظرف ثلاثة عشر سنة كاملة، لا يُتَصَوَّر أبدا ضياع القرآن الكريم من جهة حفظ كلماته.

بالنظر إلى الدوافع الدينية و الملكات الذاتية و انتفاء الموانع و المعوقات المدنية، و مركزية القرآن الكريم في الحياة الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية لدى الأوائل، و آياته المعدودة المنزلّة على سنوات ممدودة، يمكن الجزم بنقل القرآن متواترا في الصدور موازاة مع كتابته في السطور مما يثبت موثوقيته و صحة نسبته إلى منتهى السند البشري و هو محمد صلى الله عليه و سلم و أن هذه الموثوقية ترقى إلى درجة اليقين بلا شك.

يقول أحد أشهر و أشرس المستشرقين الناقدين للقرآن و هو مارجليوث حول نظرية الإسناد: "إن قيمة نظرية الإسناد في تحقيق الدقة لا يمكن الشك فيها، و المسلمون محقون في فخرهم بعلم الإسناد" (حسن أ.، 2019، صفحة 59)

المبحث الثالث: الأركيولوجيا و القرآن، المقابلة

المطلب الأول: موقف القرآن من الأركيولوجيا

بمقاربة موضوعية للآيات القرآنية سأسرد بعض الآيات الدالة –بالمقتضى أو باللائم- على موقف القرآن من الأركيولوجيا كعلم قائم بذاته و مصدر للمعرفة و المعلومة منطلقا من الآيات ذات الدلالة العامة إلى ما يمكن أن تكون دلالتها خاصة و مطابقة للمقصود محيلا إلى التفاسير المعتمدة طلبا للاختصار:

يقول الله سبحانه و تعالى:

"قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَ النَّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ" (يونس101).

"أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ... " (الأعراف185).

"سَرَّيْهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ" (فصلت53)

"قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ" (الأنعام11)

"وَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِكَ بَطْرَتْ مَعِيشَتُهَا فَبَلَكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَ كُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ" (القصص58).

"أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يُذَوِّجُهُمْ وَ مَا كَانُ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ" (غافر21).

"ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَفْصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَ حَصِيدٌ" (هود100).

و عن فرعون قال تعالى: "قَالِيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ" (يونس92).

و عن سفينة نوح قال تعالى: "فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ" (العنكبوت15) و قال عنها أيضا: "وَ حَمَلْنَاهُمْ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَ دُسُرٍ . تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَنْ كَانَ كُفْرٌ . وَ لَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ" (القمر13-15) .

مع عشرات المواضيع لموضوع قصص الغابرين التي تمثل دعوى –غير مباشرة- لاسترجاع التاريخ بأحداثه و شخصياته و مواقعه. جاءت هذه الآيات في سياق النظرة القرآنية الكلية المقررة و المؤكدة على ضرورة تطلّب العلوم و المعارف بشتى أنواعها و بمختلف طرقها، فاتحة الباب على مصراعيه غير متحرزة من النقد و الانتقاد، ولا حاجة لاستيراد أكثر حول موقف القرآن من العلم عموما لإمكانية تحول المطلب إلى بحث مستقل، و لكن المقصود بيان اهتمام القرآن بالبحث عن المعلومة بحثا مقصودا لذاته و لغيره، و إذ كانت الأركيولوجيا علما من العلوم، بل علما تلتقي فيه شتى العلوم –كما مرّ بيانه- فإن الاهتمام القرآني بما قد يُعلمنا و يُعلّمنا بتاريخ البشرية و الأمم السابقة بات مرتبطا ارتباطا حتميا بالبحث و التنقيب و استرجاع ما يوصلنا إلى ذلك بمرتبة الوسيلة إلى مقصد و الطريق إلى منفذ.

زد على ذلك، أن الموضوع و الموضع بين آيات الأحداث و الأخبار و القصص من جهة و الاسترجاع التاريخي في الأركيولوجية من جهة أخرى يتقاطع في نقطة مشتركة و هي "التاريخ"، و الذي يجعل تلاقي المصدرين و احتكاكهما أمرا لا مناص منه.

و لو أردنا أن نأخذ المخلفات الأركيولوجية بمعناها الحرفي و الأعم، فإننا نستطيع أن نُوسّع مجال البحث أكثر و نقول أن القرآن الكريم قد ربط الكثير من العبادات و الشعائر بمعالم و أماكن و قطع و مخلفات أثرية، مما يجعل آيات الأحكام هي الأخرى ترتبط بالأركيولوجيا من هذه الحثية، فالصلاة و الحج و العمرة مرتبطة بالكعبة و عرفة و المسجد النبوي و هي مخلفات أثرية بالتعبير أركيولوجي، و كذا مقدار زكاة الأموال قياسا على الدينار الذهبي و الدرهم الفضي اللذين وقف عليها أنباع التابعين في تحديد أنصبه الزكاة، و الصّاع النبوي المتواجد في المسجد النبوي في تحديد مقادير زكاة الفطر وهكذا، أما من الجانب الوعظي فقد اتخذ

القرآن الكريم من النظر في الأمم السابقة وديارهم و ما بقي من آثارهم منهجا وعظما يعتمد على قياس الحاضر بالمستقبل، و نفوذ سنة الله في الأمم الغابرة و اللاحقة، و من هنا يتبين لنا و بكل أسف خطأ بعض الفتاوى المعاصرة المحرمة لزيارة الأماكن الأثرية بل و تحريم -أو كراهة- علم الأركيولوجيا من أساسه !!

المطلب الثاني: موقف الأركيولوجيا من القرآن

تقف الأركيولوجيا أمام القرآن و تتعامل معه كوثيقة و كمروية، أما كالثيقة فإن الأركيولوجيا تعتمد علم الإبيغرافيا (épigraphie) لتتحقق من الوجود التاريخي للقرآن الكريم اعتمادا على التأريخ بالكربون المشع إذا كان وعاء الكتابة ذو أصل عضوي أو بطرق أخرى أكثر تعقيدا، و أقدم مخطوط وصلنا للقرآن الكريم يرجع إلى القرن الأول الهجري، وبعد تحقيق دقيق لتأريخ المخطوط بجامعة ليدن الألمانية بالكربون المشع توصل فريق البحث إلى تأريخ يمكن حصره في فترة ما بين 20 و 40 سنة فقط بعد وفات رسول الله صلى الله عليه و سلم، إضافة إلى مئات المخطوطات التي ترجع إلى القرن الثاني و الثالث الهجري و التي تبرهن على وجود القرآن التاريخيا كما تبرهن على حفظ مضمونه إذ لم يسجلوا -بعد المقارنة بينها و بين القرآن المطبوع بين أيدينا- أي خطأ معتبر يغير المعنى في الآيات أو مخالفة في ترتيب سوره أو آياته مما يخرج عن الروايات العشرة المعتمدة للقرآن الكريم (حسن أ.، 2019، الصفحات 183-211).

إن إثبات الوجود التاريخي للقرآن إبيغرافياً هو دليل أركيولوجي مستقل عن مجرد وجود القرآن كوثيقة، لأن نقل القرآن في التقليد الإسلامي يحصل بالنقل الشفهي بالأصل، أما الكتابة فقد جاءت تابعة له، و إنما فائدة إثبات الوجود التاريخي عن طريق تأريخ المخطوطات -و هو نوع من أنواع التوثيق- يُحتاج إليه لرد دعوى تأليفه في نهاية القرن الثاني الهجري من طرف الخلفاء بدافع سياسي محض، هذه الدعوى الاستشراقية التي تولى قيادتها "شاخ" و "وانسرو" ثم "باتريشاكراون" و زميلها "كوك" من بعدهم. أما موقف الأركيولوجيا من القرآن كمروية تاريخية فإن الآثار لم تكشف بعد عن كل الأحداث و الشخصيات القرآنية و قد يتعذر ذلك لكون القرآن نفسه لم يفصل كل الأحداث و الشخصيات التاريخية كما مر بيانه، على الأقل ليس على طريقة المؤرخين، و لكن الأمر الذي يمكن الجزم به هو أنه لم يقع التعارض أو التناقض في شيء بين المصدرين أبداً، و لهذا نجد أقصى ما يمكن أن يُنتقد به القرآن الكريم هو "عدم الوجود الأركيولوجي للأحداث التاريخية المروية"، و هذا النقد في الحقيقة ليس بنقد مبني على قاعدة سليمة في الأصل، إذ أن عدم وجود الدليل لا يلزم منه عدم وجود المدلول مطلقاً، فكم من مدينة بكاملها لم يأتي لها ذكر في السرد التاريخي و قد وُجدت حديثاً، حيث أنها عاشت في صمت و ذهبت في صمت رغم تقدّمها و ازدهرها وتوقعها الاستراتيجي الذي يجعل عدم ذكرها تاريخياً أمراً مستبعداً، كما هو حال لمدينة "بومباي" الإيطالية مثلاً (يجي، 2004، الصفحات 63-69).

لا بأس بعقد مقارنة بين القرآن و الكتاب المقدس و موقف الأركيولوجية منهما كي يظهر حقيقة التصادم المزعوم بين الأركيولوجية و القرآن الكريم، و بالرجوع إلى مدارس النقد العالي للكتاب المقدس التي قامت به الحملة التنويرية في أوروبا، نجد أن هناك تصادم حقيقي بين المكتشفات الأركيولوجية و النص المقدس، و لذلك فقد اشتدت نكير الكنيسة في بدايات عصر النهضة عن التدخل الأركيولوجي من طرف التيار "المينيماليست" في الدراسات النقدية للكتاب المقدس خشية الفضيحة التاريخية التي قد يُخلّفها ذلك التدخل، حتي ما لبثت أن استسلم ذلك التيار و بعد صموده برهة من الزمن و ادعائه التوافق بين المصدرين، اعترف أخيراً بوجود وحشة علمية بين المصدر اللاهوتي التوراتي و المصدر المادي الأركيولوجي و نشأ إثرها تيار معاكس تماماً عُرف بالتيار "المكسيماليست" (عامري، براهين النبوة، 2017، صفحة 549).

أما من الجانب القرآني فإنه لم يفصل الأحداث التاريخية و لم يهتم بجزيئات الحدث و إنما كان السرد التاريخي في القرآن يتمحور حول مقصد الهداية -كما مر بيانه-، و عليه فإن الإجمال المعرفي في الأركيولوجيا و الإجمال الإخباري في الحدث القرآني

لا يضع المصدرين في موقف التعارض لاحتمالية التأويل في المصدرين على السواء، عكس الكتاب المقدس الذي وُطِنَ نفسه بذكر التفصيلات و الإغراق فيها و التي جاء التعارض من جهتها، و لا يعني هذا بحال غياب بعض الإشارات في التفصيلات القليلة جدا في القرآن الكريم و التي تتوافق و الاكتشافات الأركيولوجية و التي أصبحت محل اهتمام العديد من الباحثين تحت ما يسمى بالإعجاز التاريخي في القرآن الكريم (عامري، براهين النبوة، 2017، الصفحات 497-519).

أما من الجانب الأركيولوجي فلا يمكنه بحال رفض الأحداث التاريخية في القرآن بحجة عدم وجود ما يثبتها أركيولوجيا، كون الأركيولوجيا لم تستخرج كل ما هو دفين و مغيب عنا من اللوحات و الآثار و غيرها، و ما استخرجته بقي -أكثره- حبيس المتاحف و المراكز الأثرية و قل ما تكتمل الصورة للحدث التاريخي أركيولوجيا باعتراف الأركيولوجيين أنفسهم .

المبحث الرابع: قصص الأنبياء، بين القرآن الكريم و الأركيولوجيا

كخلاصة للمباحث السابقة النظرية و كتأصيل لهذا المبحث التطبيقي، يتقابل القرآن الكريم و الآثار الأركيولوجية باعتبار المظنون منهما و اليقيني، بأن القرآن الكريم يقيني الثبوت ظني الدلالة، و أن الآثار الأركيولوجية تتأرجح بين يقيني -و هو قليل- و ظني الثبوت -و هو كثير-، و في بعض الأحيان شكية الثبوت، أما دلالته فأقصى درجاتها الظن، و عليه فإن عملية التوثيق الأركيولوجي للقرآن ستأخذ على أساس تقوية الجانب الظني من دلالة القرآن على الأحداث المروية و ليس للإثبات النص الثابت يقينا بالأصل، نظيرها تصحيح معنى الحديث النبوي بالشواهد في علم "مصطلح الحديث"، على أن غياب هذا التوثيق يُبقى دلالة النص القرآني في دائرة الاحتجاج.

ثم إن الفائدة الأخرى من هذا التوثيق هو دفع موهم التعارض و افتعال الخصومة بين القرآن الكريم و الأركيولوجيا فجاء التوثيق ساداً للذريعة دافعاً للتهمة أكثر منه فاتحاً للمصلحة.

و بناء على ذلك سأقدم موضوع قصص الأنبياء كنموذج تطبيقي للأحداث التاريخية التي يمكن توثيقها أركيولوجيا مع بيان المنهجية المتبعة والتي تتناسب مع إيسنيمولوجية الحقلين (القرآني و الأركيولوجي).

المطلب الأول: أسماء الأنبياء في النقوش و الألواح القديمة

ذكر القرآن الكريم خمسة و عشرون نبياً بأسمائهم، و لم يذكر كل الأنبياء المبعوثين من الله لقوله تعالى: "و منهم من لم نقصصهم عليك"، و هم كثر، و بحسب الرواية من حديث أبي ذر الغفاري فإن عددهم يبلغ 124 ألفاً (صحيح ابن حبان 361)، و يمكن تقدير-اعتماداً على قوله تعالى: "و إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ"- أن عدد الأنبياء و الرسل هو نفسه عدد الأمم و الحضارات السابقة كلها، خاصة و أن الروايات التاريخية و الأساطير السابقة تنوّه دائماً برجال مصلحين، يتميّزون برجاحة العقل و الشخصية القيادية لأقوامهم، مما يجعلهم أنبياء "محتملين" مثل كونفوشيوس و لاو تسو و زرداشت و حتى بوذا، فإن الناظر إلى ما ورثوه من الحكمة ليستطيع الجزم أنها من مشكاة النبوة الأولى بغض النظر عن الغلو الذي وقع لبعضهم من بعض أتباعهم أو تحريف لبعض مقولاتهم كما حصل مع أنبياء الملل السابقة.

من جهة أخرى جرت عادة الطغاة على إخماد ذكر الثائرين المنتفضين ضد طغيانهم و ضلالهم، فلا يُنتظر -و الحالة هذه- إلى أن يُخلّد ذكر كل الأنبياء في النقوش و الألواح طالما أن التاريخ يكتبه المنتصر كما يقال.

نخلص مما سبق أن:

- هناك أنبياء جاء ذكرهم في النقوش و الألواح على أنهم مصلحون صالحون و لم يُذكروا في القرآن و قد تكون أسمائهم معروفة لدينا جميعاً من خلال الكتابات الأثرية أو الموروثات الشعبية و لكننا نجهل أنهم في الأساس أنبياء.
- هناك أنبياء ذُكروا في القرآن و لم يأت ذكرهم في النقوش و الألواح، و الظاهر أنهم كثر، خاصة الأمم التي أهلكت عن بكرت أبيها و لم تخلف إرثاً مكتوباً أو أن أمهم لم يريدوا تخليد ذكرهم.
- هناك أنبياء ذُكروا في القرآن و ذُكروا في النقوش و الألواح و هم قلة (عامري، الوجود التاريخي للأنبياء، 2021، الصفحات 263-270)، و ذكرهم في المخطافات الأثرية لا يعنى أنهم هم بأعينهم لعدم التلازم بين الاسم و المسمى بالضرورة، لكن الاحتمال قائم مادام هناك قرائن أخرى قد تؤيد هذا التوثيق، مع استحضار حقيقة فيلولوجية مهمة للأسماء المنقولة عبر الكتابات، و هي احتمالية تعرّض تلك الأسماء عند نقلها من لغة لأخرى إلى شيء من التحريف لعدم وجود المقابل الحرفي لها -مثلاً-، أو عند قراءتها بكتابتها الأصلية التي قد نجهل طريقة نطقها بوجه صحيح كاهيوغليفيه (حمّاد، 1991، صفحة 81)، و هذا كله يجعل منهج البحث عن الأسماء في النقوش لإثبات تاريخية

الأنبياء منهجا غير دقيق، و هو منهج سبق استعماله من طرف مدرسة "الماكسيماليزم" التوراتية عند تنقيبها للأدلة الأركيولوجية لإثبات صحة التوراة، و هذا ما يجعل الباحث أكثر حذرا و دقة إذا ما أراد الأخذ بهذه الطريقة.

المطلب الثاني: قصص الأنبياء في المذكرة الإنسانية

كثيرا ما يستند بعض الحداثيين و اللادينيين على الموروث الفولكلوري للإنسان في إثبات أسطورية القصص الدينية عموماً و قصص الأنبياء خصوصاً، و النظرة البحثية الموضوعية في ترتيب المقدمات على النتائج تقتضي عكس النتيجة تماماً، خاصة إذا تحوّل ما أسموه بالفلكلور الشعبي إلى أشبه ما يكون بالإجماع إنساني على الحادثة، أو بتعبير أدق على "أثر أصل الحادثة" من غير الالتفات لتفاصيلها و جزئياتها و التي تعتبر عادة محل الأسطورة في المخيال الجماعي.

فورود حادثة خلق آدم من قوة متعالية و مفارقة عليه و على الطبيعة، و أنه خلّق من طين أو تراب مع الماء ثم خلّق منه زوجه ثم أكلهما من شجرة ببستان، إن ورود هذه الأحداث بهذه التفاصيل في ثقافات متباعدة جغرافيا و زمانيا ثم تدوينها في لوحات و نقوش طينية مختلفة (الكيلاي، 2001، الصفحات 28-30) يدل كل ذلك على صحة أصل القصة رغم وجود تشويهاات روائية.

نفس الملاحظ لقصة طوفان نوح عليه السلام الواردة في الذاكرة الإنسانية و قد ذكرت أكثر من 500 قصة أسطورية تحاكي أحداث طوفان نوح، و من بين أقدم الروايات ملحمة جيلجاميش المنحوتة في أحد اللوحات السومرية (الكيلاي، 2001، الصفحات 155-160).

قد يكون التطابق بين صفات شخصية نبيّ و ما تميّز به قصته مع شخصية تاريخية نقلتها الذاكرة البشرية —مؤيدة بتسجيل منحوت أو مكتوب— يرجّح إلى حدّ ما توثيقاً أركيولوجيا للقصة القرآنية الناقلة لذلك النبيّ، كما هو الحال بين ما يُعرف عن قصة نبي الله أيّوب عليه السلام في القرآن الكريم و بين الذي ذُكر في قصة موروثة عن السومريين و المنحوتة على ستة ألواح طينية بعضها موجود في جامعة بنسلفانيا و البعض الآخر في متحف الشرق القديم بإسطنبول و جاء فيها أنّ رجلاً صالحاً أصيب بمرضٍ حتى أوشك على الهلاك و فقد أهله ثم شفي عن طريق الاغتسال و الشرب من ماءٍ مبارك ثم رجع له أهله (الكيلاي، 2001، صفحة 62).

و هكذا يمكن الاستفادة من القصص المنقولة من خلال اللوحات و البرديات و غيرها في عملية التوثيق الأركيولوجي إذا ما كانت الأحداث و التفاصيل و الجزئيات تتوافق مع القصة القرآنية على الأقل من باب الاستأناس و تقوية الشاهد، مع استحضار دائمٍ لما يمكن أن يصيب القصة من أسطورة أو إهمال أو زيادة تفرضها طبيعة التفكير البدائي لدى الإنسان، و لعل أهم مؤلّف يمكن اعتماده للاطلاع على اتفاق الذاكرة الإنسانية مع القصص الدينية —مع تحقّظ لمقاصد المؤلّف— هو "الفلكلور في العهد القديم" لجيمس فريزر (فريزر، 1972).

المطلب الثالث: الأنبياء من خلال مخلفات أممهم الأثرية

إن مبدأ حرمة توريث آثار الأنبياء الخاصة بأجسادهم كصورهم و تماثيلهم في الديانات التوحيدية الثلاثة، يجعل مهمة البحث عن مخلفاتهم الأثرية "التمثيلية" صعبة للغاية، و قد جاء في الوصايا العشر و بالضبط في الوصية الثانية —و هي أرفع نص في العهد القديم—: "لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً و لا صورةً ما ممّا في السّماء من فوق و ما في الأرض من تحتِ ، و ما في الماء من تحتِ الأرض" (سفر الخروج 20) كما جاء في العهد الجديد ما يؤكّد ذلك حيث قال المسيح عليه السلام كما ورد في إنجيل متى رقم 19: "لماذا تدعوني صالحاً؟ ليس أحد صالحاً إلا واحد و هو الله و لكن إن أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا" بما فيها من الوصية الثانية.

نجد نفس المبدأ في التراث الإسلامي، حيث جاء عن حنش ابن المعتمر قال: "قال لي علي ابن أبي طالب رضي الله عنه: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ أن لا تدع تمثالا إلا طمسته و لا قبرا إلا سويته" و في رواية "و لا صورة إلا طمسها" (صحيح مسلم 969)، و الحديث عام في كل صورة أو تمثال إلا أن الحرمة تتأكد إن تعلق الأمر بالأنبياء و الرسل و أتباعهم و لا تزال فتوى التحريم سارية المفعول من القديم إلى يومنا هذا حسب قرار رقم 195 للمجمع الفقه الإسلامي التابع لرابطة العالم الإسلامي المنعقد بالجزائر (مجمع الفقه الإسلامي، 2012)

إذا تبين لنا شرعية مبدأ "حرمة تمثيل الأنبياء في الديانات التوحيدية الثلاثة" فإنه يجعل اهتمام الأركيولوجيين ينتقل من المخلفات الأثرية الخاص بأجساد الأنبياء و ذواتهم إلى المخلفاتهم السكنية و المعمارية و المكانية لهم و لأقوامهم و هذا المجال البحثي يعرفه بعضهم بأطلس الأديان، و هو مجال يتقاطع مع الأركيولوجيا من جهة التوثيق المادي المكاني للحدث التاريخي، و على سبيل المثال فقد حدد القرآن الكريم مكان إرم -و التي هي حضارة قوم عاد الذي بُعث إليها هود عليه السلام- بمكان محاذي للأحقاف في قوله تعالى: "وَ اذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ" (الأحقاف 21) و الأحقاف كما يحدده الرحالة من العرب، هو الربع الخالي من الجزيرة العربية جنوبا (المغلوث، 2005، صفحة 92)، بعد أن كانت تُصنّف تلك المدينة ضمن الأساطير و الخرافات و أن القرآن هو الكتاب المقدس الوحيد الذي ذكرها، اكتشفتها بعثات أركيولوجيا و باحثون أحرار و جهات رسمية متعددة بداية القرن الماضي حتى أطلق عليها اسم "أطلنطس الصحراء" أو "جزيرة الرمال" (يحي، 2004، الصفحات 70-85)، فيكون الوجود التاريخي لمدينة إرم حجة للوجود التاريخي لنبي الله هود عليه السلام.

إن التنقيب عن آثار المادية للأمم و الحضارات التي بُعث إليهم الأنبياء -خاصة تلك التي تفرّد بها القرآن رواية- هو إثبات للوجود الأركيولوجي للأنبياء بطريقة غير مباشرة، ذلك بأن الأسلوب القرآني يتجه تارة في تسمية الأمم السابقة بأسمائهم و تارة بنسبتهم لأنبيائهم كما في قوله تعالى على لسان شعيب عليه السلام: "و يَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ و مَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِنْكُمْ بَعِيدٍ" (هود 89).

المطلب الرابع: معجزات الأنبياء بين الآثار و الرواية

عرّف العلماء المعجزة بأنها: "أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي، سالم من المعارضة" (حمصي، 1980، صفحة 9)، مما يجعل العقوبة الكونية التي توعدّها الأنبياء أقوامهم من جملة المعجزات كونها تحرق العادة و القانون الطبيعي و لم يستطع أحد معارضته أو دفعه، كما أن التحدي قائم بين النبي و من خالفوه إلى أن يتحقق الأمر المتحدى به (أي تحقق العقوبة).

و بناء على ما مضى فإن مجال البحث الأركيولوجي في باب المعجزات لا يقتصر على مجرد البحث عن عصى موسى أو خاتم سليمان فقط و الذي يبدو أنه من المستحيلات -وحتى لو قدر الحصول عليها فإن المعجزة لن تتكرر على غير يد النبي و عندها سنحصل على مجرد عصى أو خاتم-، و لكن مجال البحث سيتسع و يُحوّل اهتمام الأركيولوجي إلى الكوارث الطبيعية الإستثنائية التي حدثت في التاريخ و البحث عن موافقات "زمانية أو مكانية" و مطابقات "حدّثية" مع وقائع المعجزات/العقوبات التي وردت في القصة حسب الرواية القرآنية.

إن الالتفات إلى المعجزات المتعلقة بالعقوبات الكونية / الطبيعية التي توعدّها الأنبياء أقوامهم و وقعت حقيقة، لهي أحد طرق التوثيق الأركيولوجي للأنبياء أنفسهم، فحتى لو حرص أعداء الأنبياء على طمس هوياتهم "تاريخيا" -كما مرت الإشارة إليه من أن التاريخ يكتبه الأقوى- فإن توثيق الكارثة الطبيعية "الخارقة" لا تمر بصمت على المذكر الإنسانية، و إن قُدّر السكوت عنها فإنها تترك ندوبا في الأرض يمكن استنطاقها "جيولوجيا".

فمثلا لو أخذنا حادثة طوفان نوح عليه السلام و قلنا -كما يدل عليه ظاهر القرآن بخلاف ما ورد في التوراة- أنه لم يعم جميع الأرض، بل كان مُتموّعا في بلاد الرافدين (يحي، 2004، صفحة 21) فإن السجلات التاريخية السومرية و الإغريقية و

غيرها تنص على كارثة طبيعية جعلت منطقة العراق تحت عشرات الأمطار من الماء، كما صدقتها أعمال التي قام بها كل من الأركيولوجي البريطاني "ليونارد وولي" (تحت إشراف المتحف البريطاني و جامعة بانسيلفانيا)، و الأركيولوجي الألماني "إيريك فريديريك شميدت" بين العشرينيات و الثلاثينيات القرن الماضي، و رغم استقلال أعمالهما، إلا أنّهما وصلا إلى نفس النتيجة المتمثلة في وجود طبقة من الطين الأصفر بعد عمق مترين و نصف على طول الدجلة و الفرات تفصل بين طبقتين احتوت كل واحدة منهما على مخلفات أثرية (عظام، أواني...) مما يدل على وقوع طوفان مفاجئ و موضعي في المنطقة (يحي، 2004، الصفحات 25-31). نفس الشيء بالنسبة لعقوبة قوم لوط المنصوص عليها بدقة في القرآن الكريم حيث قال الله تعالى: "فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَ أَطْرَقْنَا عَلَيْهِمَا حِجَارَةً مِّنْ سِجْلٍ مُّنْضُودٍ" (هود 82)، و بالتأمل نجد أن جامع الظاهرتين "عاليها سافلها = إنزلاق أرضي مفاجئ" و "إمطارٌ بالحجارة من سجلٍ منضود" = انفجار بركاني"، هو في الواقع الجيولوجي صدع تكتوني، و قد توصّل الأركيولوجي الألماني "فيرنر كلير" إلى أن منطقة البحر الميت كانت مسرحاً لتلك الواقعة بحكم وجودها في منطقة زلزلية نشطة على تصدع تكتوني يمتد على طول 300 كلم و وجود آثار من الصهارة البركانية في الطبقات الأرضية إلى جانب قرائن أخرى كارتفاع ملوحة البحيرة و الذي يدل على تحلل كمية عضوية هائلة -في ظل غياب مصدر آخر للملوحة- (يحي، 2004، الصفحات 51-52).

نجد أيضاً في نصّ بردية إيبوير ipuwer papyrus -التي ترجع ل 1300 سنة ق.م (أي بعد خروج بني إسرائيل بـ 200 سنة فقط) و المتواجدة بمتحف ليندن بهولندا- موافقة كبيرة بين مضمونها و المصائب و الكوارث (عقوبات كونية/معجزات إلهية) التي حلت بفرعون زمن موسى عليه السلام و قبيل خروج بني إسرائيل من مصر المنصوصة في القرآن الكريم، فقد ذكرت البردية تحوّل نهر النيل إلى الدّم و انتشار الحشرات و الضفادع و الفقر و المجاعة و الجفاف و نقص الثمرات، حتى أنّها ذكرت في الورقة (1: 7-2) أن فرعون "قد فُقد في ظروف لم يحدث مثله من قبل"، و كل ذلك موافق بالتصريح (تحويل النهر إلى دم) أو بالتلميح (هلاك فرعون) للنص القرآني (وليد، 2020).

و الملاحظ من خلال هذا المطلب أن هذا المجال من التوثيق، أي توثيق العقوبات/المعجزات، أركيولوجياً/جيولوجياً هو أكثر موضوعية، تقنيا و معرفياً، و الأبعد عن تدخل "يد الإنسان" فيها سواء بالأسطورة أو التحريف أو الطمس أو أدلة النتائج، اللهم إلا ما كان من تعمية إعلامية لتلك الاكتشافات تقودها خلفية إيديولوجية ما.

نتائج البحث:

- بناءً على شقّيّ البحث، النظري و التطبيقي، يمكن استخلاص النتائج التالية:
- تُصنّف الأركيولوجيا -بعد وضعها في إطارها الإيستيمولوجي- على أنّها أحد العلوم الأكثر ذاتيةً و الأقل دقةً، معرفياً و تقنياً، مما يجعل الباحث يتعامل معها بحذر إذا ما أراد توظيفها في حقل علمي أو إنساني أو إجتماعي ذي طبيعة معرفية خاصة، على غرار العلوم المتعلقة بالوحي كتفسير القرآن الكريم مثلاً.
- يتعيّن على المؤثّق لأحداث القرآن بالأركيولوجيا أن يستحضر قبل عملية التوثيق جملة من الخصائص في صورة "مقدّمات" تتعلّق بطبيعة القرآن كمصدر وحي قبل أن يكون وثيقة تاريخية هي كالتالي:
- مُقصد القرآن الهدائي الذي يجعل من مادته التاريخية تابعة لذلك المقصد، و الذي يُرجّح -في الغالب- أسلوب الاختصار و الإيجاز في سرد القصة.
- القرآن كتاب احتوى على التاريخ و ليس بكتاب في التاريخ، فلا ينبغي أن يُعامل معه بالصّرامة المنهجية التي تُسلّط على المؤلفات التاريخية الحديثة.
- نقل القرآن بما فيه من مضامين تاريخية بالتواتر يجعل منه كتاباً مؤثّقاً بذاته.

- لا يرفض الإسلام علم الأركيولوجيا و لا يُحَرِّم تطلّبه، كما أن هذا الأخير لم يأتي بما يناقض أو يكذب "النقل الصحيح الصريح".
- يُنظر إلى عملية التوثيق الأركيولوجي للأحداث القرآنية كأحد الطّرق التي تزيد من يقينية دلالة النّص على القصة، فضلا من أن يكون ثمة تضارب بين الدليل القرآني "الوَحْياني" و الدليل الأركيولوجي "المادي".
- لا ينبغي الاقتصار في عملية التوثيق الأركيولوجي لقصص الأنبياء على إثبات الموافقة الاسمية بين المكتوب في النقوش و اللوحات الأثرية و ورود اسم النبي في القرآن الكريم، بل يجب توسيع التوثيق بالبحث في:
 - المذكرة الإنسانية التي توارثتها الثقافات الشعبية من خلال اللّوحات و البرديات، مما يمكن أن تتوافق مع القصة القرآنية بعد تصفيتها من شوائب الأسطورة و المخيلة الجماعية، فيكون التوثيق بهذه الطريقة من باب "المجمل بالمجمل".
 - التنقيب عن المدن و المخلّفات السكنية للأقوام الذين أرسل إليهم الأنبياء، فإن وجودهم التاريخي تابع لوجود أقوامهم و مُدُنهم التاريخي، فيكون التوثيق بهذه المنهجية توثيقا غير مباشر.
 - البحث من جهة "جيولوجيا الأرض" و التي تتوافق مع الأركيولوجيا في كونها وسيلتان لاسترجاع الماضي، و يكون البحث في مجال المخلّفات المادية الجيولوجية التي يمكن التوثيق من خلالها بعض معجزات الأنبياء المتمثلة في العقوبات "الطبيعية" التي سلّطت على أقوامهم، هذا المنهج هو الآخر يعتبر توثيقا غير مباشر لقصص الأنبياء في القرآن الكريم.

مراجع البحث:

المراجع باللغة العربية:

- أي الحسن أحمد ابن فارس. (2001). معجم مقاييس اللغة. بيروت - لبنان: دار إحياء التراث العربي.
- أحمد حسن. (2019). أركيولوجيا الإسلام. الرياض: مركز دلائل.
- جورج سارتون. (2010). تاريخ العلم، العلم القديم في العصر الذهبي لليونان. (إبراهيم بيومي مذكور، محمد كامل حسين، قسطنطين رزيق، و محمد مصطفى زيادة، المترجمون) القاهرة: المركز القومي للترجمة.
- جيمس فريزر. (1972). الفلكلور في العهد القديم. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- حمال مصطفى عبد الحميد التجار. (2017). تواتر القرآن الكريم. القاهرة: الجمعية المصرية للقراءة و المعرفة.
- رعد شمس الدين الكيلاني. (2001). الأنبياء في العراق، دراسة مقارنة بين القرآن و التوراة و الإنجيل. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة.
- سامي بن عبد الله المغلوث. (2005). أطلس تاريخ الأنبياء و الرسل صلوات الله عليهم. الرياض: مكتبة العبيكان.
- سامي عامري. (2017). براهين النبوة و الرد على اعتراضات المستشرقين و المنصرين. لندن: تكوين للدراسات و البحوث.
- سامي عامري. (2021). الوجود التاريخي للأنبياء و جدل البحث الأركيولوجي. الكويت: رواسخ.
- سعد محمد الهجرسي، و سيد حسب الله. (1998). المكتبات و المعلومات و التوثيق. الإسكندرية: دار الثقافة العلمية.
- عاصم محمد رزق. (1996). علم الآثار بين النظرية و التطبيق. القاهرة: مكتبة مدبولي.
- علي حسن. (1993). موجز في علم الآثار. مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- (2012). مجمع الفقه الإسلامي. الجزائر: رابطة العالم الإسلامي.
- محمد الأسعد. (2010). مستشرقون في علم الآثار، كيف قرؤوا الألواح و كتبوا التاريخ. بيروت: الدرا العربية للعلوم ناشرون.
- محمد بيومي مهران. (1988). دراسات تاريخية من القرآن الكريم. بيروت: دار النهضة العربية.
- محمد حماد. (1991). تعلم الهيروغليفية، لغة مصر القديمة و أصل الخطوط العالمية. القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب.
- محمد قبيسي. (1982). علم التوثيق و التقنيات الحديثة. بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة.
- محمود عبد الرحمن عبد المنعم. (1999). معجم المصطلحات و الألفاظ الفقهية. القاهرة: دار الفضيلة.
- نعيم حمصي. (1980). فكرة إعجاز القرآن، من البعثة النبوية إلى عصرنا الحاضر. لبنان: مؤسسة الرسالة.
- هارون يحي. (2004). الأمم البائدة. بيروت: مؤسسة الرسالة ناشرون.

المراجع باللغة الأجنبية:

- Francfort, H.-P. (2012). la position épistémologique de l'archéologie. archéologie à découvrir , 269-277.
- larousse, l. p. (2000). le petit larousse. france: HER.
- yoffee, n. & severin, f. (2010). L'archéologie dans les sciences humaines. Diogène (229), 51-77.

مراجع الشبكة العنكبوتية:

- نييل علي. (14 06، 2019). فلسفة الأركيولوجيا. تاريخ الاسترداد 07 12، 2021، من قناة الفينق - اليوتيوب: <https://www.youtube.com/watch?v=-RKiYG3Scww>
- فراس وليد. (الخميس 01، 2020). موقع إعجاز القرآن و السنة. تم الاسترداد من: <https://quran-m.com/%D9%85%D8%AE%D8%B7%D9%88%D8%B7%D9%87->

%D8%A7%D9%8A%D8%A8%D9%88%D8%B1-
%D8%AA%D8%AD%D8%AF%D8%AB%D9%86%D8%A7-%D8%B9%D9%86-
%D9%85%D8%A7-%D8%AD%D9%84-
%D8%A8%D9%81%D8%B1%D8%B9%D9%88%D9%86-
/%D9%88%D9%82%D9%88